الفصل الحادي والعشرون

العواطف الجنسية

تلك الميول القائمة بين الانسان والانسان وبين الذكر والانثى ، وبين الانسان وبعض أنواع الحيوان ، هـــذه كلها « عواطف » على رأسها « العواطف الجنسية » التي من عواقبها وثمارها ، الحب والزواج وما يدور بين العاشقين والزوجين من ألوان المحاصرة والمعانقة والقبلة وبين الاقربين والاصدقاء من صلات المودة ، وما يتفتق عن المجتمع الانساني من حلقات الرقص ومجالس الطرب والموسيقي ، وما ينبعث في النفس من آيات السرور والضحك . ومن أجل هذا أرصدنا هذا الفصل لكي نتحدث هنا عن العواطف

الحـــــب

الحب قديم جداً . فهو قائم على رنين ملحق بالجهاز الصوتي وممتد إلي غور اليد ومعين الذكر على ايجاد منفس له إلي الصرخة المحببة المرددة الفاتنة للانثي ، التي ليس لديها هذا الجهاز . ومن هنا كانت قانعة ، بأن تصغي إلى ذلك الصوت وهي بعيدة عن مصدره إلي أن يستولى عليها تأثيره المطرد فتستجيب إلي هذا النداء ، أو قل هذه الاغنية إذ أن ذكور جميع أنواع الحيوان ومنه الحشرات تتولى « الاذاعة » . أما إناثه فتصغي اليها ويحـــدث مثل هذا في القردة العليا والانسان ، إذ تتبع الفتيات نداء الفتى وأغنيته . وفي السادسة عشرة أى فى سن البلوغ ، تستيقظ الغدد الجنسية وتشرع في تأدية مهمتها وتبرز مواد كيماوية « الهرمونات » التي تمضي فى مجري الدم فتتسع الحنجرة وتتأثر الاحبال الصوتية ويخشن الصوت ويشعر الفتي البالغ بالحياء حين ينظر إلي الفتاة ويفكر في حبها وتتسع حنجرتها قليلا

ويؤدي هـذا الى أن يتبعها ، جاهداً فى الاستحواذ عليهـا . وفي الشعوب الهمجية يقترن هذا السعي باستعمال العنف . وقد تقاوم الانثي الى أن تستسلم من الاعياء

الـــــــــزواج

عندنا أن الزواج على الصورة التى نعرفها الآن لم يعرفه الانسان البدائي ، ذلك أن المفروض أنه لم يكن يعرف للاسرة نظاماً ثابتاً ولا للعلاقات الجنسية حرمة ، وليس ببعيد أو بمستغرب أنه كان يتصل اتصالا جنسيـا بامه وجدته وأخواته وبناته وحفيداته . غير أن غريزة التملك والاستئثار قد هدته ، علي تعاقب الدهور والقرون ، إلي الحرص ، ولو إلي وقت قصـير ، على إحـدي النساء باختطافها والهرب بها بعيـداً عن مواطنيه ومساكنيه ، خاصـة حين يكون مرغوباً فيها من أنداده ولداته أو غيرهم

ولقد كان الانسان البدائى يعقد زواجه على من يشاء أو من يستطيع أن يقربه من النساء في غير ما تفريق بين الاقارب والاصهار كما قدمنا . فيقترن الرجل بأخته وابنته وأمه وحماته . وقد اقترن « آدم » بأمرأة من ضلعه « حواء » . واقترن أولاده باخواتهم . وتزوج « ابرهيم » من أخته لأبيه ، واقترن أخوه « ناحور » باخت أخيه « حارام » أو بابنة أخته . واقترن « يعقوب » بأختين معاً . وكان الاثينيون يجيزون الاقتران بالاخوات لأب والسبارطيون بالأخوات لأم ، والمصريون والآشوريون بالأخوة والاخوات لأب أو أم.

لم يعرف الانسان قيود الزواج إلا بعد أن ظهرت الشرائع السموية المنظمة

هذا ولايزال الزواج بالاخوة والاقربين جارياً بين الهمجيين فى أفريقيا وأمريكا واستراليا . بل إن عند القليل من الفلاسفة العصريين أنه ينبغي أن يعود الانسان إلي حياته الطبيعية ، أي الى حياته البدائية ونشأته الهمجية فيتزوج مايطيب له في غير ما قيد ولاحد .

وهكذا تقلبت الصلات بين الرجل والمرأة فى مختلف الطرز وألوان العرف، تبعاً للضرورات الاقتصادية والدفاعية والهجومية، فاتخذ الزواج من المقدمات والمراسيم والمواثيق ما لا يقف عند حصر قبل التاريخ وبعده إلى العصر الحاضر، فتعدد طوعا للنظم السياسية والدينية القائمة كالاسلامية والكنسية والمدنية والشيوعية والالحادية والشرائع الوثنية

على أن بعض أشكال الزواج البدائية لا تزال قائمة عند هنود أمريكا وسكان استراليا الاقدمين وزنوج أفريقيا . فعند هنود نهر الامازون أن طالب الزواج يسعى عند رئيس القبيلة لكى يوافق على زواجه من المرأة التى يختارها . فاذا ما أذن الرئيس ، كان على العريس أن يأتي بالعروس الى الغابة قبل غروب الشمس، وهنا يمضي مصحوباً بشاهدين فى ربط العروس بجذع شجرة ثم يلهب عروسه بسوط تطهيراً لها في نظر القوم ، وعندئذ تصرخ متألمة فيقبل السحرة محيطين بها راقصين هاتفين هتافاً عالياً مزعجاً ويشعل — في أثناء هذا — أحد الشهود النار فى كومة حشائش وحطب عند قدوم الفتاة التى تتلوى متألمة الى أن يغمى عليها ، وعندئذ يسرع الشاهد الآخر الى حل وثاقها ، ويهتف السحرة مهللين فرحين لان الارواح الشريرة قد خرجت منها . ثم تحمل العروس الى كوخ عريسها . وهناك مراسم تجىء بعد ئذ .

المهر

عرف المهر قديماً فى بابل وآشور واليونان القديمة والبلاد اليهودية، فقد كان الشاب إذا أحب فتاة طلبها له والده أو بعض أقاربه من والدها ويتراضون على مال أو عقار يدفعه الرجل مهراً لوالد الفتاة . أما الفقير فيقوم بخدمة حميه فقد ورد فى سفر التكوين ص ٢٩ ء ٢٠ أن يعقوب قد خدم حميه لابان سبع سنوات حتى زوجه

ابنته راحيل ، وورد في سفر الخروج ص ٢ ع ٢١ و ص ٣ ع ١ أن موسى أقام عند حميه يترو كاهن مديان ، يرعى غنمه مهراً لابنته

البغـــــاء

لازم البغاء الانسان قبل عصر التاريخ وبعده ، فقد كان في مصر وآشور وكنعان وفينيقيا والكلدان وايران ، شعائر دينية تمارس بضروب الخلاعة والفساد ، وكانت معابد ايزيس رمولك والبعل وعشتاروت ومليتة ملآى بالشعائر الشهوانية . وكانت الديانة البابلية تتطلب من المرأة ممارسة البغاء كطقوس دينية واقتصرت الشريعة اليهودية على حصر البغاء بين الاجنبيات وتحريمه بين اليهوديات واحراق بنات الكهنة . وسن صولون قانوناً يحصر البغايا في دور خاصة وفي أزياء خاصة

السـرور والضحك

رافق السرور والضحك الانسان البدائي والمتحضر فهو من الغرائز . عند علماء النفس ان كل ما يحس به الانسان ، يصل اليه إما من الخارج كما يسمع ويرى ويذوق ، ويلمس . وإما من الداخل كالحرارة ، والبرودة وحركة الدورة الدموية والجهاز التنفسي ، والامعاء ، وأعضاء التناسل وغيرها من الاختبارات . هذا وإن ما يحس به إما أن يسبب له ارتياحا ولذة ، أو انقباضاً وألماً ، وهو ما نسميه وجداناً وهو ذو مظاهر خارجية من احمرار الوجه أو اصفراره ، وابتسامته أو عبوسته وكوقوف الشعر ، وخفقان القلب ، وانقباض اليدين ، وارتعاش البدن . أي الانفعالات التي تدل الناس على وجدان صاحبها . فالرجل الضاحك المبتسم يوافق وجدانه السرور . هـذا وإذا ما ضمرت أو ماتت عضلات الوجـه لقلة الاستعمال ، كان هـذا سيء الاثر في الوجـدان ذاته وخاصة

ان الانفعالات قد تسبق الوجدان ، أى أننا نضحك ونحس بالسرور ، ونذرف الدمع . ثم نحس بالحزن . كما في الحركات البدنية وحلقـــات الذكر بسبب الانفعـالات الدينية ، وإذا ما بكى الممثل أو غضب أو خاف تأثر بالموقف . ومن يتصنع المرض يكاد يدركه المرض . كما يذهب الى هـذا كارل لانج الدانيمركي ، ووليم جيمز الاميركي . وعند علماء الامراض العصبيـة أن من يتوهمون أنهم غير مبتسمين ينظرون الي الدنيا بمنظار أسود . هذا والقرآن والعادة الأثر فى هذا الميل

ومن النظريات الوجدانية : النظرية المنطقية ، وهى أن الجهاز العقلي فى تأدية وظيفته ، قد يلقي عرائق فى طريقه ، وهنا يحس صاحبه بالألم أو الانقباض وفى غير هذا يحس بالسرور . أما النظرية المادية فهى أن الألم الناتج عن الانقباض وعدم الارتياح هو نتيجة اتلاف للانسجة البدنية . أما السرور فهو نتيجة بناء للانسجة البدنية . فاذا ما وضعت أصبعك في الماء الساخن أحسست بألم ، وما هذا الالم سوى نتيجة لازمة لاتلاف أنسجة بدنية متصلة بالاوعية الدموية . وكذلك الالم الذى يجيء عن حزن أو غم ، أو غضب ، أو كراهية ، أو حسد . أما الرجل الذى يغلب عليه الضحك ، فانه يعمل على بناء أنسجة وخليات جديدة فى جسمه . والناس الذين يمزجون حديث المـائدة بالبسط والمزاح والضحك ، ينتفعون بالطعام من المادة الغذائية فيه ، ومن بناء الانسجة بالمرح ، وثمة نظرية تكاد تكون مناقضة لسابقتها فى الظاهر ، ولكنها تؤدي المعنى ذاته ، وهي أن الوجدان الذي يتصل به سرور يساعد الجسم على التخلص من الانسجة الميتة المتراكمة التى لايحتاج اليها صاحبها . وهذا يفسر ظاهرة الحالة النفسية التى يكون عليها الرجل الذى يتناول كأساً ، أو مقداراً معتدلا من الخمر . تكون هذه الكأس سبباً فى التخلص من الانسجة المتراكمة ، وينتج عن ذلك أن يحس شاربه بالارتياح الوقتي

سبب الضحـــــك

لما كان الضحك هو انبساط الوجه الناتج عن حركة عضلات ولا سيما عضلات الشفتين، كان في الواقع حركة أكثرما تكون غير مقصودة ، مع ظهور العينين بمظهر خاص يشف عن الفرح والانشراح وارتياح النفس . ويكون هذا المظهر مصحوباً بانطلاق الهواء من الرئتين انطلاقا متقطعاً وبصوت يخرج من الحلق. فان لم يكن مصحوبا بصوت وبظهور الاسنان فهو التبسم .الواقع ان الانسان لا يضحك من حركة واحدة ولا من كلمة واحدة بل من مجموعة حركات أو كلمات. وهذا يحمل البعض على تعليل الضحك بقولهم انه يجمع بين حركات أو الفاظ على وجه مبهج غير منتظر . الا ان هذا التأويل لا يعلل جميع الحوادث والمناظر والاقوال التي تدعو الي الضحك . كما أن الاختبار يدل على أن الضحك هو عمل نسبي . فقد تضحك أنت من شيء لا يضحك غيرك . وقد تقهقه من نكتة لا يقهقه لها جليسك . وهذا دليل على أن المزاج أيضاً علاقة بالضحك. فأصحاب الامزجة الباردة لا يتأثرون بالنكات بالسهولة التي يتأثر بها أصحاب الامزجة العصبية ، وقد يكون أصعب عليك أن تضحك الرجل الانجليزي من أن تضحك الرجل الفرنسي .

وخلاصة القول أن العلماء لم يتفقوا على تعليل الضحك تعليلا صحيحاً وإن اتفقوا على أن غريزة الضحك رافقت إنسان ما قبل التاريخ

القبـــــــــلة

القبلة هو ضغط الشفتين أو لمسهما خداً أو يداً أو شفة لآخر استجابة لعاطفة الحب والود والاحترام أو التحية .هذا ويبدو أن القبلة من أقدم العادات البشرية. وكان قدماء اليونان يقولون إن القبلة مفتاح الجنة وهناك أنواع للقبلة تبعاً للغرض

منها . فالقبلة على الجبين واليد رمز للاحترام ،وعلي الخد دليل على الصداقةوالمحبة وعلي القدم رمز للعبودية ،وعلى الفم آية علي الغرام

وقد رافقت القبلة الانسان البدائي فقد كانت المرأة تقبل صغيرها قبلة الحنان . ثم انتقلت القبلة الي لثم الراحتين والمخلفات الدينية والي ادخالها فى الطقوس الدينية وتعميد الاطفال

هذا والقبلة عند بعض الهمجيين و بعض أنواع الحيوان تكون باللسان. أما قبلة الكلب فهى مسح رأسه فى ثياب سيده ، وقبلة الفيل بتحريك خرطومه . ومن الاطفال والرجال من يلعقون الجلد وهي صورة من صور القبلةحين تؤخذ بالمعنى الاوسع ،وهواللمس المنبعث من حرارة العاطفة ، وهذه العاطفة الحارة تبعث في نفس ما تنطبع عليهالقبلة ،نشوة وابتهاجا وتأججاً فيالعاطفة أو الحب

الرقـــــص

الرقص من أقدم العادات التى مارسها الرجل البدائى محاكياً الحيوان في تجمعه وتحركه ، والاشجار في اهتزازها ، والسيول في جريانها ، أو محيطاً بالمرأة أو زعيم القبيلة أو رأس الاسرة ابتهاجاً أو تحمساً ودفاعاً أو احتراما وتقديسا

والرقص ، لغة ، مشية فيها تفكك وخطران ينتقل بها الراقص متردداً في وقت الطرب . أما من الوجهة الفلسفية فان الرقص حركة فطرية ناشئة عن تراكم القوى الحيوية في الجسم وتزايدها الى درجة يحملها علي طلب منفذ لتخفيفها وعلى هذا كانت الحركات التى يأتيها الطفل هي من قبيل الرقص

كان الرجل البدائى يقف فى حلقة الرقص واثباً وممسكا بالعصا أو سلاح ما يحركه حركة يرمى به الى التدليل على شجاعته وقوته والمرأة واقفة أمامه فى زينتها وخطرتها ورشاقتها وملاحتها وصباحةوجهاوتبرجها ،وكان عرب الجاهلية

يعرفون نوعاً من الرقص يسمي « الزفن » و « الفنزج » وفيه يأخـذ بعض الراقصين بايدى البعض الآخر ، ويمارسون الرقص فى الاعياد والحفلات الدينية بل إنه كان ملازماً للآلهة ونوعا من العبادة

هذا وقد عرفت مصر الرقص قبل عصر التاريخ وبعده . قال « لوسيان » : « كان الرقص والغناء مقدسين عند قدماء المصريين ومن لوازم احتفالاتهم الدينية ، وكانت حركات رقصهم تماثل فى سرعتها انحدار الماء وتموج الشعلة النارية في الهواء ، وكبرياء الاسد وغضبة الفهد وترنح الغصن » .هذا وكان لهم رقص حربي يمارسه الجند المسلحون، ورقص اعتيادى يمارسه أعضاء الاسرة أو العشيرة. ولكل حالة من حالات النفس عند اليونان رقصة خاصة بها

أما طبيعة الرقص فهو اهتزاز العضلات ناشطة من تلقاء نفسها بتأثير شعور قوى كفرح اجتماعي أو حفل دينى ، واجتماع معين لحركات ظريفة تؤدى للمرح الذى يستمتع به الراقص والناظر اليه . والرقص حركات مرتبة يراد منها محاكاة أعمال بعض الامم وعواطفها . وتذهب بعض القبائل الى حد الهوس والجنون ومحور الرقص (التناسق). أما في تيجرى بالحبشة فالرقص يعقد فى دائرة أو حلقة بتحريك الاكتاف وهز المرفق أماماً وخلفاً . أما البوشمان فيمسكون العصي (تحت أسقف دورهم الواطئة) .وبينما أحد القدمين لا تتحرك ، ترقص الاخري رقصاً وحشياً . وفي الهند يرقصون زوجين، العين الي الارض والذراع قريب من الجسم وعند نقطة معينة يهز الراقص رأسه فجأة ويديرها. أما نساء البلتوه فيرقصن في دائرة متحركين أماماً وخلفاً فى انحناء. وأحياناً يعبر الرقص عن عاطفة شهوانية كما فى (تسمانيا وأندمان) . أما في نيو كاليدونيا فهو عدة حلقات حول الجسم مع القفز . أما فى المكسيك فيمسك الراقصون والراقصات بأيديهم ويعانق بعضهم بعضاً والذراع علي الرقبة

هذا ويرقص المئات في رقصة البرفيان أو يمسكون الايدي أماماً وخلفاً ٣ درجات . وعند قبائل الزولو وتاهيتى يرقصون ويغنون عند الحرب والصيد وعند قبائل الاستياك تسأل المرأة ويجيب الرجل، وفي آسيا الشمالية يمائل الرقص حركة الحيوان

الموسيقي

قال إريك بلوم في كتابه بالانجليزية الموسيقى في انجلترا صفحة ١١

« لسنا نعلم متى أصبحت الموسيقى فناً مهذبا في البلاد الانجليزية بل في غيرها من بلاد العالم أيضا . كذلك لسنا نستطيع أن نذكر كيف اتخذت الموسيقي لنفسها هذا الاهاب والنمط . غير أن من المحقق أن ثمة مدارج قد درجت فيها الموسيقى قبل أن تبدو في شكلها المعروف ، مدارج لم تصل أنباؤها الي التاريخ بعد . إذ أنه منذ آجال بعيدة كان الناس يرقصون ويغنون . ومن بواعث الأسف من الناحية التاريخية ، أن الموسيقي كانت تتناقلها الاسماع والتقاليد . بل إنه حين كان هناك شيء من نظام النوتة بقيت أمداً طويلا ناقصة ، فلم تكن أكثر من مذكر بتشديد الكاف غامض عن ما كان يعرفه الموسيقيون بالتعليم عن طريق السماع ولا يزال مجهولا متى وصل الموسيقيون إلي الهرموني في شكله البدائي. وقد أكد المؤرخون أن الاغنية الساذجة. وهي ليست هرمونية، تمثل أولى مراتب الموسيقي كخطوة كبيرة سبقت كشف الهرموني . ومن المظنون أن التماذج بين نوتتين أو أكثر لم يعرفه أحد قرونا طويلة »